عراقيون في ايطاليا

ميلانـــــو.. ليلـــــة الأرابيسكـــــو

ميلانو / صافي الياسري

له نكهة خاصة ذلك الحديث عن (زواغير) حدائق وقاعات نادي الشباب (الميلاني) الذي يضم كاليري الشباب للفنون العالمية (التشكيلية) والفولكلورية وقاعة الموسيقى والرقص، والمسرح الصغير، ومسرح الهواء الطلق وقاعة الشعر، وقاعة المؤتمرات والمحاضرات التي تتسع لقرابة ثلاث مئة شخص، نادي الشباب في سنترال ميلانو على بوابته تماثيل تشبك اصابعها في دائرة رمزية توحي بالكرة الارضية وتمثل هيئاتها كل الاجناس ويساقط عليها ليلاً (نور) يحمل كل جلالة الانسانية.

في تلك الليلة دعتني مجموعة من الشباب العراقيين الثملين بخمرة الفن العراقي جد فنون العالم المعاصرة، وعلى القاعة (السباعية) كانت الجدران المنارة بطريقة تحسب خط الظل حد المليمتر، وتحسب كيف يمتد الضوء أو ينحسر عند اللوحة أو اطارها، أو مدخلها أو متنها أو معيرها في تلك الوريقة الفضية أو الخضراء أو الارجوانية.. أو المتدرجة اللون باسلوب يعبق باسلاميات العباسيين، فتبرز سامراء جارية أو سيدة أو أميرة مرصعة بالكبرياء أو تطل بغداد مفتونة أو فاتنة في مشاغل حتى نحن (أصحابها) نسيناها..

. هذا هو المعرض الفني الثاني (للأرابيسك) ويقيمه الاخوة (السوريون) وللأسف لا يشارك فيه أي فنان عراقي. قالت السيدة نوار المفتي احدى سيدات الجالية العراقية في ميلانو، وهي جالية، برغم قلة عددها، لها نفوذها الثقافي و (الاقتصادي) والاجتماعي في المدينة وبالاخص بين الجالية العربية، برغم انها هذه الايام تعاني بعض الصعوبات في تعامل الاشقاء العرب الذين يسود سوء الفهم والضبابية والافكار الجاهزة (مناخهم) النفسي تجاه العراق والعراقيين. كان صوت صباح فخري مطرب القدود الحلبية السوري المعروف يشدو (يا طيره طيري والقرصية منين) و.. ثمة جو أموي يمتلك فضاء القاعة تلونه ثياب الفتيات السوريات الفولكلورية، فقد كان واضحاً إنهن تهيأن منذ الصباح لهذا المساء الدمشقي الأموي، وحدي انا من كنت اعترض...

. انتم تنسبون إلى دمشق أزاهير سامراء...

اكرر قولي بصوت أعلى فيجتمع حولي العراقيون ومثل حكواتي بغدادي أمسك حنجرتي مكرفوناً جهورياً واطرق أروقة القصور العباسية في (العسكر) وبغداد. والارابيسك يا اخوتي، فن يختص بالزخارف النباتية، وهو نوع مهم وراق من الزخرفة ابتكره المسلمون في العراق، وأصطلح مؤرخو الفن الاوروبي على تسميته (Arabesque) أو (الزخرفة العربية) وسماه العرب المحدثون أسماء متعددة مثل الرقش العربي والتوشيح العربي والأسم الأكثر دقة وشيوعا (التوريق).

اما تاريخ نشوء (التوريق العربي) فربما كانت بداية في القرن الثالث الهجري (٢٠٩) هـ وقد زينت به جدران قصور ومساجد مدينة العسكر (سامراء) بزخارف جصية كان من بينها نوع اطلق عليه (الطراز الثالث) كما يقول الباحث زكي محمد حسن في كتابه فنون الاسلام ص(٢٥٠).

ومن أبرز اشكال التوريق العباسي السامرائي (المروحة النخلية) التي تمتاز بتكيفها في المساحة المخصصة لها وقابليتها على الانشطار والتفرع والتكرار اذ تبدأ هذه الزخرفة بمد رأس المروحة وشطره إلى فرعين احدهما يتجه إلى اليمين والآخر إلى اليسار لينتهيا بنصف مروحتين متناظرتين ومتقابلتين يحيطان بالمروحة النخلية الكاملة.

وبدأت الاسئلة العراقية المرحة الجدية والاسئلة السورية الاستفزازية واسئلة الاخوة ابناء المغرب العربي وهم يمدون اصابعهم متلمسين الجذر السامرائي في البنايات التراثية في طنجة والرباط والدار البيضاء وصفاقس وتونس وسبته ومليلة و.. تلك الجدران البيض المطلة من تلال الاطلس وجباله على اطراف ثياب المتوسط الزبرجدية المزبدة التي ورقت حتى (السمك).

ذلك ان التوريق (العراقي) امتد إلى عموم الأقطار الاسلامية وقد تأثر به الفاطميون بدءاً من القرن الخامس الهجري كما يقول الدكتور (احمد فكري) في كتابه . مساجد القاهرة ج١ ص ١٨٢، والباعث الحقيقي لابداع فن التوريق العراقي الجذر، هو كراهية الاسلام لتصوير الكائنات الحية و(مضاهاة خلق الله) ولكني احسب ان الامر غير ذلك، فقد احتال الفنان المسلم على هذه (الكراهية) بان لجأ إلى تصوير تلك الكائنات غير مكتملة (الخلق).

وهنا يمكن القول ان خيال الفنان العراقي الخصب ومناخ الابداع الذي وفرته الاجواء العباسية المترفة هو السبب الاساس ففي تلك المدة من الزمن لم يعد (الخلفاء) العباسيون وأمراؤهم متزمتين دينياً تماماً.

وقد نما وتطور فن (التوريق) حتى صرنا نرى مجموعتين أو أكثر من الزخارف المتشابكة كما في زخارف مشهد (زمرد خاتون) في باب الظفرية وبرغم ان بغداد هي أم الفنون لم يصلنا من اشكال التوريق على مبانيها أبعد من القرن السادس الهجري، أواخر العصر العباسي.

ويمكننا ملاحظة مدى التطور الذي وصله فن التوريق العراقي آنذاك، من خلال التركيز على روح التنوع وكثرة الاشكال وتعقيد تكرارها كما هو الحال في جدران ومقرنصات المستنصرية والقصر العباسي، واستمر هذا التطور والتعقيد ممتداً إلى العصر الاسليخاني كما هو في مئذنة سوق الغزل، ثم في العصر الجلائري، كما هو في المدرسة المرجانية. وخان مرجان. وجامع الخلفاء وجامع السلطان وجوامع تراثية أخرى في بغداد تظهر فيها الزخارف النباتية على شكل حشوات داخل المقرنصات أو على شكل أشرطة أو انها مضافة إلى الاشكال الهندسية الزخرفية الاخرى.

وهي في الحقيقة قريبة الشبه باشكال مئذنة الشيخ معروف والقصر العباسي والمدرسة المستنصرية، الاشرطة فيها على شكل اغصان مورقة متشابكة تظهر مرة بشكل غصنين يلتف احدهما حول الآخر وتخرج منهما انصاف مراوح نخيلية متناظرة وتتكرر في وحدات متساوية، واحياناً تزيد على غصنين بتناسق هندسي بديع محسوب من البداية حتى النهاية تماماً مثل لحن موسيقي يبدأ بنغمة وينتهي إليها.

اما نظام التوريق في المستنصرية فيعتمد المراوح النخيلية المفصصة والبسيطة مع العنصر الكأسي والروزيت ومعظم الوحدات فيها تتميز بوجود عقد في سيقانها أو فروعها الرئيسة وتخرج باتجاهات مختلفة، اما في المحارب فهي مستقلة وعلى الجدران تخالط وتزين الكتابات متجهة إلى اليمين واليسار.

ويعد. القصر العباسي من روائع الفن المعماري الاسلامي وترتقي فيه الزخرفة درجات راقية من الابداع والدقة والاتقان ومهارة (الصناع) والفنانين، ومن اجمل ما في القصر، حفر الزخارف على الأجر، والزخارف النباتية هنا اما مستقلة أو حشوات منتظمة في ما يمكن تسميته بالفراغات بين الاشكال الهندسية الاخرى (النجمية) مثلاً وتعتمد التناظر بين اجزائها ان تنقسم إلى جزءين متشابهين، وفي بغداد اليوم عدد لا باس به من فناني التوريق المبدعين كالفنان اياد الآلوسي من تكريت وسناء شهاب وعبد الرحمن مجيد وعبد الصاحب الكوفي، وعائلة عبد الحسن الكربلائي التي اتقنت ايضاً فن النقش والخط على الكاشي الكربلائي المعروف، واشكال التوريق المنقوشة على جدران ومقرنصات وأبواب أضرحة وصحون الائمة. موسى الكاظم (ع) في بغداد و الامام العباس والحسين (ع) في كربلاء والامام علي (ع) في النجف وصحن ضريح الامامين علي الهادي والحسن العسكري (ع) في سامراء، وصحن ضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني والجدران الخارجية لمسجد الامام ابي حنيفة وجدران قاعة الصلاة، والكثير من المساجد واضرحة الأولياء المنتشرة في انحاء العراق و.. سكت الحكواتي أو (القصخون) البغدادي فقد رأى ان ما قاله فيه ما يكفي ليؤكد ان الليلة يجب ان تكون عباسية لا أموية.

العراقيون القادمون من أرجاء (الجزمة) الايطالية، قالوا انهم يأتون لقضاء بعض الاعمال المتعلقة بمهنهم ولزيارة اصدقائهم وأقاربهم، وانهم يأتون إلى هذا النادي لأنهم يجدون فيه منهلاً ثقافياً وفنياً عالمياً بعيداً عن التعصب والعنصرية.

الفنان السوري المعروف محمد رضوان الخياط أشار إلى ان ما قلته حقيقة تاريخية ثابتة، لكن الارابيسك لم يعد ملكاً للعراقيين، بل انهم تخلوا عنه، وعلى هذا فهو الآن ملك من يبدعه ويقدمه للعالم ويدهشه به ولا تشمل العمارة الاسلامية . العمارة الدينية وحسب بل العمارة المدنية ايضاً، وما يمثل تلك العمارة ليس المسجد والمرقد والضريح فحسب، بل المدرسة والقصر والمستشفى والفندق والحمام والبيت العادي بأثاثه من أوعية وصحون وأدوات زينة فالفن الاسلامي لم يفصل بين الفن والحياة، والفنان لم يكن ينجز عمله ليضعه في المتحف كما هو الحال اليوم، انما كان يستخدمه الناس في حياتهم اليومية، الابريق المنقوش يستخدم للوضوء، والسجادة للصلاة والتدفئة والصندوق الخشبي المزخرف لحفظ الاشياء الثمينة، وهنا تتبدى لنا مقدرة الفن الاسلامي الكبيرة في تحويل أبسط أدوات الحياة اليومية إلى قطع فنية قيمة، كذلك لم يفصل الفن الاسلامي ما بين الابداع والحرفة كما حصل للفن العربي منذ عصر النهضة، القوس موجود فوق القبة المعقودة على خان (اسعد باشا) ولا بد من كسر كآبته البصرية بنقوش مضيئة وخطوط تحمل آيات قرآنية واشكالاً مجردة توحي بالامتداد والمطلق، وجدار المئذنة المصمت ترقشه مقرنصات ذات ايقاعات متواترة تلغي رتابة الحجر، اما الفسحة الكبيرة في الجدار فهي تتطلب من الحرفي كسر صحرائها باماليد نباتية وتوريقات منوعة كما هو شائع في الجامع الأموي وسط دمشق وهكذا فان لكل نمط من العمارة ما يناسبه من زخارف وفنون) كان الفنان الخياط مصيباً فيما قاله، وكان يبدو كأنه يقرأ صفحات كتاب أو مقالة فنية أعدت لهذا الغرض ، وانا اعترف ان الفنانين العراقيين هجروا اوكادوا، هذا الفن البديع، ولم يلتفت الفنان العراقي إلى الفن الإسلامي التفاته إلى فن الحضارات العراقية الآشورية والكلدانية والبابلية والسومرية، وأظن ان الرواد من الفنانين العراقيين وفي مقدمتهم جواد سليم ومعاصروه جروا خلفهم الفنانين العراقيين إلى رقعة الحداثة متأثرين بمسيرة الفن العالمية، اكثر من تأثرهم بخصوصية الفن العراقي وليد المناخ الإسلامي.

الألوان الفيروزية والزبرجدية وحرفية الفنان السوري، شدت الانظار بقوة إلى المعروضات، ولعل البراعة هنا تتجلى في هذا التناسق الهائل الذي يبصره. ويشاهده المرء في وظيفة البناء والنمط الفني الذي يحدد خطوطه وزواياه الهندسية، مبيناً اصالة تنبغي استعادتها وسط فوضى التقليد وضياع الهوية والطابع، وهكذا حين يطل (الارابيسك) من على واجهات العمارات والبنايات وفي السقوف والجدران والفسفيات ناثرة المياه، فانه يشد إليه حتى اولئك الغربيين الذين اعتادوا الكتل الاسمنتية في عمارتهم التي افتقدت الفن مرجحة الوظيفية الخدمية، وهم يرون (التوريق) في أبهى حلله وروعته عندما تتعانق النجوم والمكعبات والخطوط وتتشابك التوريقات المتنوعة في نسيج متكامل ومخطط يمثل الوجود كله.

تقول الفنانة ليز تورنتسيني وهي تعمل في احدى ورش الفاتيكان لصيانة اللوحات الفنية، انها تعتقد ان السحر العراقي يطل من كل لمسة أو خط أو انحناءة في التوريق، حتى لو كان الفنان أو الحرفي غير عراقي، ذلك انه مرغم على استحضار روح ذلك العراقي العظيم الذي ابدع أول تشكيلة وطوق بها جدار قصر أحد الخلفاء أو ضريح احد الأولياء أو سقف عشيقته. المغربي ياسر بن حميدة يقول.

انا مع الآنسة ليزواود ان اضيف، ان المناخ الفلسفي العراقي آنذاك بأسئلته الكثيرة وجدله وسفسطته، ربما عبر عن جوهر ما.. من خلال التوريق، قد لا أدرك كنهه أو قد لا أتمكن من التعبير عنه، لكنه ينبع من فلسفة اسلامية خالصة في التأمل مع الفن تؤكد ان الكائنات اجمع انما هي روح الهيولى الجوهري، فيبدو التوريق ضمن شريط تكثر فيه العناصر الشكلية مكونة موضوعاً متحركاً ليس له بداية ولا نهاية، تتكرر العينة باستمرار وتصبو إلى الجوهر بنوع من التسبيح أو الذكر، انها تنقل الرائي إلى جمال الوجود المستمد من رمال خالق ومخلوق.

العراقية. امال العبيدي. طالبة في معهد الفنون الجميلة في روما. قسم النحت، قالت. الأخ بن حميدة، لم يعدو الصواب حين نسب التوريق إلى جوهر فلسفي ابدعه العراقيون، ولا أظن ذلك كثيراً عليهم، لكن هذا لا يعني انهم يعيشون حالة تعقيد ما بسبب غورهم بعيداً في محيط الفلسفة، بل على العكس انت تجد العراقي.. هنا في ايطاليا برغم كل تعقيدات الحالة المادية على ابسط ما يمكن طلبات وتطلعاً وتسامحاً، وليس في ذلك أية ازدواجية.. فالعراقي اعتاد الابداع إلى الحد الذي صار يرى فيه مسألة تدفعه نحو التواضع والبساطة لا التعالي والغرور.. وبرغم كل محبتنا لبعضنا عن العراقيين في ايطاليا.. لم نضع فيما بيننا (جيتو عراقي) كما فعل الكثيرون، وهنا نحن نحظى ليس بحب الإيطاليين، اصحاب الدار وحسب، وانما باحترامهم العالي.

نبيل الياسري. يملك معملاً لصناعة الادوات البلاستيكية كان يستمع إلى ما تبادلناه من أحاديث من كثب، فقد جذبته اللهجة العراقية، اعتذر بداية من فضوله، وحين قلت له اريد أن (اسمعك) قال عم تريدني ان اتكلم؟. انت دخلت حلقة العراقيين المستوطنين ايطاليا من بوابة الارابيسك. وهي في الحقيقة بوابة واسعة، فحين يعطيك الايطالي رأيه في الفن العراقي، فان بامكانك ببساطة ان تجره إلى الحديث عن العراقيين في ايطاليا، وحين تتحدث إلى العراقيين عن فن بلاده، فان بامكانك ان تتوغل إلى اعماق أعماق معاناته وهو يعيش غربة ممضة وفراقاً محزناً وهو يبتعد عن جذوره، ويحاول بشتى الطرق ان يجد ما يعيد صلته بتلك الارض الطاهرة.. لوحة، اغنية.. خبراً، وجهاً عراقياً، لساناً يتحدث تلك اللهجة المتجذرة في ارواحنا حباً وحنيناً.

ويضيف نبيل. حين كنت انظر إلى الصور الفوتوغرافية للمباني التراثية العراقية على وجه الخصوص واستطلع ابداع الفنان والحرفي العراقي وهو ينقش زخارفه وتوريقاته مستخدماً ادوات بدائية في التقطيع والحفر والحف والتنعيم بأناة وصبر ودأب عجيبين، كنت أوطن نفسي على تحمل المشاق، وتجاوز اليوم وهمومه نحو الغد الذي يجب علي ان (انحته) تماماً. بادوات بدائية ايضاً. كذلك الفنان الذي زخرف جدران القصر العباسي بتلك المروحة النخيلية بدقة مدهشة وقياسات مطلقة الدقة بادواته البدائية. وهكذا.. مضى الأمس وها انا ابحث الغد.. وقد رسمته كما أريد لأثبت اني (عراقي حقيقي).

❖ هل تنوي العودة؟

. لا بد من ذلك.. فانا لا يمكن ان أدفن إلا في العراق.

❖ متى؟

. حين تكتمل قدراتي على ان اخدم شعبي.

فجأة يتوقف (صباح فخري) عن غنائه العذب، وتبقى مليحته بخمارها الاسود ناصبة خيمتها على باب مسجده اغواء وعناداً انثوياً حبيباً، ليتسلل صوت الفنان العراقي عباس جميل في اغنيته الاصيلة (مالي صحت يمه احاه جا وين اهلنا) تقطعها فرقة موسيقية ايطالية سبق لها ان زارت العراقي في السبعينيات، ووزعت موسيقى الاغنية على الآلات الغربية وغنتها (سولو) مطربتها (لولو) والفرقة هي واحدة من أشهر الفرق الموسيقية الايطالية اليوم وتدعى (غجريات روما) وهي تضم عازفين من الرجال اما المغنيات فهن نساء فقط، الاغنية تثير حماس العراقيين فيقتربون من موقع احدى السماعات (التوربو) ويرافقون حيناً عباس جميل بلهجته العراقية الاصيلة وحيناً آخر الفرقة الايطالية بطرق لفظها الغربية التي تطرق القلب قبل الأذن بنية الاداء الجمالي والتحبب والاحترام العالي للعراقيين.

لنجتمع بعد ذلك في حلقة جوهرها وصليبتها العراقيون واطرافها وحواشيها وما حولها من العرب والافارقة والايطاليين ومن اجناس اخرى، العراقيون تحدثوا عن هموم الغربة وأكدوا جميعاً حنينهم إلى الوطن بكلمات بسيطة معبرة (احدهم سألني. هل نزلت (البانيا) إلى السوق؟ وكم هو سعرها؟

. عرفت انه لم يغادر العراق برغم انه أمضى (١٢) عاماً في بلاد الله الواسعة، وفي الوقت الذي ضحك فيه الجميع مرحاً عقب هذا السؤال.. دمعت عيناي وأنا اقول له:

. ان مواسم العراق لم تتغير.. ولن تتغير

. عراقي من الجالية العراقية في الدانمارك. قال ان ملكة الدانمارك قبل مدة قصيرة خصت الجالية العربية هناك بجزء من كلمتها، وتحديداً العراقيين مطالبتهم بالسعي بجدية لتعلم اللغة الدانماركية، بعضنا فسر ذلك بأنه محاولة لطمس الهوية الثقافية العراقية، لإذابة الجالية العراقية وصهرها في المجتمع الدنماركي، وآخرون فسروها بنية حسنة على انها دعوة لاقامة علاقات حسنة ولتسهيل أمور العراقيين لفهم أوسع وأعمق لطبيعة المجتمع الدانماركي وبالتالي تسهيل العيش في مناخه.

عراقي آخر يستوطن فرنسا، قال ان هموم الجالية العراقية هناك، هي نفس هموم الجالية العربية عموما، فالشعب الفرنسي في الحقيقة شعب مثقف وانساني النزعة، لكن جل ما نخشاه هو الاحزاب اليمينية الضيقة الافق التي تحرض ضد (الاجانب) الذين يسرقون (فرص العمل) من ابناء البلد، ويغيرون طابعه الاجتماعي والثقافي، وهي دعوة عنصرية في جوهرها مغطاة بشتى الذرائع، كما ان هناك تمييزاً فاضحاً في الاجور والحرمان من التأمين الصحي والضمان الاجتماعي والأمر اكثر سوءاً بالنسبة للاجئين العراقيين بعد سقوط النظام وتصاعد الدعوات إلى اجبارهم على العودة إلى العراق من دون النظر إلى الوضع الأمني والاقتصادي الذي قد يتسبب في تدمير حياة عشرات العوائل في حال العودة العشوائية غير المخطط لها، كما ان مجرد ارتكاب مخالفة بسيطة ولتكن مخالفة مرورية على سبيل المثال قد تصل العقوبة احياناً إلى الطرد من البلد، اما فيما يخص العلاقات الاجتماعية وتدخل القوانين حتى في العلاقات العائلية الخاصة فهذا وحده يحتاج (تحقيقاً) مطولاً.. ناهيك عن مزاجية اصحاب العمل في فرض شروطهم وصعوبة الحصول على فرصة عمل ثانية في حال فقدانك عملك لأي سبب كان.. و..

. كنا نضنكم في الجنة

. نعم كنا نحسب اننا في الجنة برغم كل شيء.. لأننا كنا نعيش بعيداً عن (صدام حسين).

السيد.. (..).. بروفيسور في اختصاص علمي مهم، جاء إلى النادي يرافقه حارسان خاصان (ايطالي وعراقي) انضم إلى حلقتنا وجلس بتواضع يشاركنا آخر نكتة في المهجر تدور حو (عزة الدوري) فما زال هذا (الهارب) مدار تندر العراقيين حتى في المهجر.. قال هذا الرجل:

كنت قد هيأت نفسي قبل عام ونصف للعودة إلى العراق، لكن السلطات الايطالية وجهات من الامم المتحدة وعدد من الاصدقاء أوضحوا لي أني اجازف بحياتي، فان هناك قوى مظلمة مجهولة الهوية (معروفتها) تستهدف العلماء والاساتذة الجامعيين والاطباء وعموم الكفاءات العلمية، وفي الآونة الأخيرة صار هؤلاء مستهدفين حتى وهم في المهجر.

الحديث عن الجالية العراقية في المهاجر الأوروبية ذو شجون وسنوالي تباعاً ملاحظة هموم اخوتنا وابنائنا هناك واحلامهم وتطلعاتهم إلى عراق جديد مستقر آمن يعودون إليه بعوائلهم وكفاءاتهم ومشاريعهم ليرفعوا صرحه عالياً.. عالياً

*** الفن العراقي جد فنون العالم**

*** التوريق السامرائي يغزو العالم**

"ليلة غنى العراقيون. (مالي صحت يمه أحاه)"